

## الايديولوجية والنظام الايديولوجي

الايديولوجية فلسفة كونية تقوم على مبادئ محددة، تم تحويلها إلى حركة سياسية بهدف الاستيلاء على السلطة وإعادة تشكيل الواقع بناء على رؤية قادة الفلسفة المعنية وروادها الأوائل. ويمكن تقسيم الايديولوجيات إلى فئات ثلاثة: ايديولوجية اجتماعية ثقافية، أي دينية؛ وايديولوجية اجتماعية سياسية، أي قومية؛ وايديولوجية اجتماعية اقتصادية، أي ماركسية ورأسمالية. وفيما يسعى الدين إلى هداية البشر، تسعى القومية إلى توحيد الشعوب حول شعارات وأهداف مشتركة، وتسعى الماركسية والرأسمالية إلى تحسين الاحوال الاجتماعية والاقتصادية لأتباعها من الناس. ولما كان من غير الممكن لفلسفة كونية أن تتحول إلى حركة ايديولوجية من دون قيادة تتولى زمام الأمور وتقوم بتفسير مقولاتها وترفع شعاراتها وتدافع عنها، فإن أفكار القادة ومصالحهم الخاصة طغت على غايات الفلسفة المعنية، ما جعل من غير الممكن لايديولوجية أن تعكس مبادئ الفلسفة التي انطلقت منها، أو تنجح في تحقيق الأهداف المجتمعية التي جاءت من أجلها.

الايديولوجية الدينية تصادر معظم حريات الإنسان وحقوقه، بمن فيها حريته الاجتماعية وحرية السياسية، وبعض حقوقه الاقتصادية، وحرية الرأي والفكر والسلوك، وذلك مقابل وعد بحياة بعد الحياة لا يمكن لعلم أو تجربة إنسانية أو حقيقة تاريخية أن تثبت أو تنفي وجودها؛ ما يجعل الايمان بالوعد هذا يعكس وجهة نظر وقناعة ذاتية، وليس حقيقة علمية. لذلك لا يجوز لمؤمن أن يفرض وجهة نظره على غيره من البشر، ولا أن يتسلم زمام أمور مجتمع، لأن السياسة هي فن الممكن، الأمر الذي يجعلها لا تلتزم بمبادئ أو أخلاق. وفي الواقع ليس في السياسة أخلاق، وليس في الأخلاق سياسة. كما وأن مصالح القائد المأدلج تتعارض في العادة مع مصلحة المجتمع، فيما يمنحه وجوده على رأس السلطة قوة غير عادية لكبت عامة الناس وتزييف وعيهم، وتحقيق مآربه على حسابهم.

الايديولوجية القومية ولدت في اسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر بهدف تحرير البلاد من العرب واليهود، ما جعلها تتحالف مع الكنيسة، وتقوم بتكفير غير المسيحيين وحرقت عشرات الآلاف منهم، واجبار من لم يستطع الهروب على اعتناق المسيحية. ولقد أدى انتشار الفكر القومي إلى إقامة العديد من الدول في اوروبا، والتحول بسرعة إلى ايديولوجية اصدمت مع الكنيسة التي كانت تواجه حربا دينية طاحنة. ولما كان من غير الممكن أن تستقل الدولة القومية من دون أن تتخلص من هيمنة الكنيسة، فإنها تحالفت من سكان المدن والتجار في بلادها ضد الكنيسة. ولقد نتسبب تلك الحروب التي دامت نحو 80 سنة في قتل نحو خمس سكان أوروبا الغربية، وانتهت عام 1648 بفصل الدين عن الدولة. ومع بداية عمليات التصنيع تحولت القومية إلى حركة عنصرية استعمارية قتلت ملايين البشر، وقامت بالاستيلاء على معظم بلاد العالم، واستغلال مواردها واستعباد شعوبها.

الايديولوجية الرأسمالية ولدت في رحم الثورة الصناعية، وتطورت من خلال الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج، وترعرعت في ظل الاستعمار ونهب ثروات الشعوب الفقيرة والضعيفة. وفيما تسمح نظم الحكم الرأسمالية للناس في بلادها بممارسة حرياتهم الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلا أنها صممت معظم القوانين بالكيفية التي تمكن النخب السياسية والاقتصادية من

استغلال الفقراء والضعفاء وعامة الناس لحساب الأثرياء والأقوياء؛ فيما يقوم إعلامها بتزييف وعي عامة الناس والترويج لثقافة الاستهلاك، وجرهم للغرق في الديون؛ الأمر الذي مكن النظام الرأسمالي هذا من مصادرة إرادة الناس وإنسانية الإنسان.

أما الفلسفة الماركسية فقد جاءت كرد فعل على الممارسات الاستغلالية للرأسمالية، خاصة قيام الرأسماليين باستغلال النساء والأطفال خلال فترة ظهور المصانع وانتشارها؛ الأمر الذي جعل الماركسية تنادي بالعدالة، وتدعو إلى استيلاء طبقة عمال الصناعة على ملكية أدوات الإنتاج، لكنها تحولت، كغيرها من الفلسفات، إلى حركة سياسية استولت على الحكم. ومع أنها استطاعت ان توفر لقمة العيش لكل مواطن في بلادها، إلا أنها حرمتها من حرياته الدينية والسياسية والاقتصادية، ما جعلها تحاصر عقله، وتصادر إرادته، وتطلق العنان لغرائزه التي تتنافى مع إنسانيته.

يشير التاريخ إلى ان نظم الحكم الايديولوجية التي قامت على الدين والقومية والماركسية نجحت في بداية الأمر في تمكين نفسها من حكم البلاد التي استولت عليها، وتحقيق انجازات جيدة في معظم مناحي الحياة، لكنها تحولت بسرعة إلى نظم حكم عقيمة ظالمة، ما جعلها تنتهي بالفشل. أما نظم الحكم الرأسمالية فقد كانت أكثر النظم الايديولوجية نجاحا من النواحي الاقتصادية والعلمية والثقافية والتكنولوجية، لكنها لم تتخلص من النزعة الاستغلالية، الأمر الذي مكن النخب السياسية والاقتصادية والإعلامية من الاستحواذ على معظم عوائد العملية الاقتصادية، والاستيلاء على أكثر من نصف ثروات البلاد التي حكمتها. وفي ضوء اتساع نطاق الجشع واستمرار عمليات الاستغلال، فإن النظم الرأسمالية فقدت ثقة الشعوب فيها، ما جعلها تدخل مرحلة التآكل والانهيال التدريجي.

لكن التاريخ يشير أيضا إلى أن نظم الحكم الايديولوجية لا تموت بسهولة، ولا تختفي إلا بعد صراع قد يتسبب في وقوع حروب دامية، وأن فترات التردّي والتراجع تشهد حدوث ردة ثقافية وحيانا دينية أيضا. لكن كل ردة، بغض النظر عن طبيعتها ودوافعها، هي محاولة للرجوع إلى الخلف وإعادة عقارب الزمن مئات السنين إلى الوراء؛ وهذا غير ممكن لأن التاريخ لا يكرر نفسه أبدا. وهذا يعني أن ما تشهده أوروبا وأمريكا من ردة قومية عنصرية، وما تشهده البلاد العربية من ردة دينية ثقافية لن يكتب لها النجاح مهما طال الزمن وتكاثرت أعداد القتلى. لذلك، كل من يموت في سبيل ردة دينية أو ثقافية سوف يموت بسبب اصرار قادة الايديولوجيات التي يتبعها على التمسك بالسلطة وممارسة التسلط، وتمادي الأثرياء في استغلال الفقراء والضعفاء وكبت تطوراتهم.